الرجل الخفي

-1-

خرج إلى الشارع و بدأ بالركض نحو المقبرة لاهثاً ..... وصل إليها و كان التعب قد أنهكه وأخذ منه كل مأخذ ... وقف منهكاً أمام القبر ثم جثا على ركبتيه ..... وغلبه البكاء.... بدأ يصيح كالمجنون " لماذا فعلت ذلك؟ عُدّ وأعدني إلى ما كنت عليه ..... رُدّ عليّ ..... أين أنت !!!! "

تنهّد بعمق ومسح دموعه التي أغرقت وجهه ثم عاد بذاكرته إلى ذلك اليوم حينما قرر الخروج من عمله لإحضار سيارته من ورشة التصليح .....

.....

كانت السكرتيرة سعاد تقرع الباب منتظرة إذن الدخول إلى غرفته لكنه لم يُجبْ ..... كان صوت الموسيقى الكلاسيكية يملأ الغرفة ..... وكان غارقاً في دقائق الكونشرتو ... قرعت ثانية .... و ثالثة .... ثم دخلت دون استئذان ..... اقتربت من طاولته .... تنحنحت ....

- سيدي أريد أن .....
- " منتفضاً .... غاضباً " ..... اللعنة ..... كم مرّة قلت لك ولهذا الساعي ألا تدخلوا عليّ كاللصوص ....
- آسفة ولكن لقد قرعت الباب أكثر من مرّة و لم.....
- " مقاطعاً " إذاً لا تدخلون .... أحاول أن أريح أعصابي من همّ العمل وغلاظة الرعاع الذين أتعامل معهم ولا أجد متنفساً حتى في مكتبي ...!!!
- أعتذر .... ولكن .... الصوت عالٍ جداً ....

- " باستخفاف " عالٍ جداً !!! أنت لا تفقهين شيئاً ..... ولن أضيع وقتي معك في كلام لن تفهميه ..... ماذا تريدين؟
- أريد أن أذكّرك بموعد ورشة التصليح ..... لقد وعدوك أن تستلم السيارة في العاشرة و الآن العاشرة و الربع .....
- " صارخاً " ولماذا لم تعلميني في وقتها ..... لا فائدة فيكم في هذا المكتب .... وجودكم كعدمكم .....

قام و ارتدى معطفه وهمّ بالخروج عندما استوقفته .....

- سيدي..... قبل أن تخرج أريد أن أحدثك بشأن ابنتي و عمليتها الجراحية ... لقد أخبرنا الطبيب .....
- " نهرها مقاطعاً " إنني في عجلة من أمري و لا وقت لي لسماع هذه الاسطوانة المشروخة .... ابنتي و العلاج و العملية ..... لقد مللت ... وسبق و أعطيتك ما فيه النصيب لإجراء التحليلات و غيرها .... ولا يعني كونك سكرتيرتي أن تقومي بطلب المال متى شئت .....
- !!!!!! " ما فيه النصيب " !!!!!! سيدي أنت تسيء لي بهذه العبارة !! ألأنني في حاجة !! و ابنتي بين الحياة و الموت !!!
- " مقاطعاً وهو يغادر المكتب " ابحثي عن عمل إضافي.....

أغلق الباب وراء ظهره بينما تجمّدت ملامح سعاد ..... ثم قامت و بدأت بإفراغ أغراضها من درج الطاولة ....

- من يستمع للموسيقى الكلاسيكية يكون صاحب حسّ مرهف وقلب رحيم ..... أما هذا الحمار فالأحجار أرق منه و أرحم ..... فليذهب و عمله إلى الجحيم .

رمت بمفاتيح المكتب على الأرض و أجهشت بالبكاء ..... كان الساعي يسترق النظر و الدمع يترقرق من عينيه دون أن يهمس بكلمة ....تمالكت نفسها و مسحت دموعها ثم خرجت ....

وقف ينتظر سيارة الأجرة على رصيف خلا من المارّة إلا القليل ..

- لو سمحت يا بني ....

" نظر إلى العجوز و تأمّله بازدراء " .... " لا ينقصني إلا هذا المتسوّل "

- .... أريد ....
- " مقاطعاً " ..... اذهب من هنا ....
- تمهّل و اسمعني لو سمحت .....
- " مشيحاً بوجهه عنه " اغرب عن وجهي ..... أنت و أمثالك تعكـــرون حياتنـــا و تسيئون إلى منظر الشارع ..... يجب أن تكونوا في السجون ....

انصرف العجوز وهو يتمتم بكلمات ..... فلحق به غاضباً... وأوقفه ....

- هل شتمتني !!
- دعني يا بني أنا أدعو الله تعالى .....
- بل شتمتني.... أنت قليل الحياء ....

لطمه على وجهه فتمايل العجوز و كاد أن يقع .... ثم تماسك و نظر إليه ملياً ..

- تتحدث عن النظافة و القذارة تملأ قلبك المريض ..... لم لا تدفع زكاة مالك بحـــقّ لترى الشوارع أنظف مما هي عليه الآن أيها النظيف .....
- " مقاطعاً و صارخاً " اخرس و انصرف لم يبق إلا أنت لتحدثني عن الزكاة .....

استدار العجوز منصرفاً ..... وما إن خطى بضع خطوات حتى عاد وسقط على الأرض ولكن بلا حراك .....

لم يؤثر هذا المشهد في نفسه شيئاً .... و لم يتحرك ليفعل أي شيء ..... تأملَ مشـــهد العجوز الساكن ببرود شديد دون أن يرف له جفن ..... جاءت حافلة فاستقلّها مـــن فوره و جلس مستاءً مما جرى معه وراح يتمتم .....

- " سعاد .... و هذا المتسول ..... والطريق الطويل إلى الورشة ..... يا له من يـــوم ..... لست أدري ما الذي أجلسني بين هؤلاء ..... كان عليّ انتظـــار ســـيارة الأجرة .... أشعر ببرودة تسري في جسدي "

وصلت الحافلة إلى موقفها ..... نزل سريعاً وسار في طريقه نحو ورشة التصليح ودخل إليها ثم نادى على صاحبها..... ولكن لم يجبه أحد ....

- اللعنة .... أين ذهب هؤلاء الـــــ !!!

فجأة دخل احد العاملين أمامه ....

- هيه أنت .... أين معلمك .... قل له ....

لم يلتفت إليه العامل بل تابع طريقه

- اللعنة .... أنا أتحدث إليك أيها الـــــ ..... سأقول لمعلمك أن يطردك لهذا الاستهتار ألا تعرف من أنا .....

وبينما كان يكيل اللعنات على عمّال الورشة استدار بوجهه نحو مرآة على الحائط وذهل حين لم يشاهد نفسه فيها !!!! هنا تسمّر في مكانه و غُصّ حلقـــه ..... بينمـــا ازدادت دقات قلبه وازداد اضطرابه .....

- ما الذي يجري ..... أين انعكاسي ..... لماذا لا أرى نفسي !!

دخل شخص آخر أمامه فصاح به لكنه لم يلتفت إليه ..... ركض إلى الداخل باحثاً عن صاحب الورشة فوجد العمال يتناولون يسير الطعام و يتمازحون .....

- هيه ..... أنتم يا رعاع ..... لماذا لا يردّ عليّ أحدكم ؟ ما هذا الاستهتار!!!

قام بعض الجالسين من مقعده و اتجه إلى غرفة أخرى دون أن يتحدث معه و كأنه لـــيس موجوداً !!

- اللعنة عليكم ..... أنا أقف بينكم و أنتم لا تأبهون ما هذه الوقاحة !!! ما.....

توقف عن شتائمه للحظة و تملكته الدهشة ..... خرج من الغرفة ولحق بهم وسار بينهم دون أن يكترث به أحد ..... عاد ونظر في المرآة ....لم يجد نفسه !!!! .....غلبـــه ضحك ممزوج بالدهشة و الحيرة ، وصار يتحدث بأعلى صوته في أذن العامـــل دون أن يجد استجابة منه!! خرج إلى الشارع وبدأ يصيح بين المارّة فلم يلتفت إليه احد.....

- مالي أتصرف كالمجانيين !! هل حقاً أنا غير مرئي !! ولكن كيف !!

غشيته نوبة من الضحك الهستيري .....

- تماما كما في الأفلام لقد اختفيت ..... ولكن ماذا بشأن سيارتي ؟؟ هـــل ســـأعود ثانية وأمشي بين هؤلاء ؟ .... ولكن .... لم لا أستفيد من النعمة التي أنا فيها الآن و استمتع بوقتي .....

اتخذ قراره بالمشي في الشارع يندسُّ بين الناس ليسمع أحـــاديثهم .... راح إلى مكاتـــب خصومه يسترق منهم السمع ..... استمر على هذه الحال عدّة ساعات حتى حلّ الظلام فأحس بالملل وعضّه الجوع ....

- لقد كان يوماً غير عادي ..... لا بد لي من العودة إلى المنزل و تنـــاول بعـــض الطعام ثم الخلود للنوم و سأصحو لأعود بعدها إلى حياتي الروتينية المملة والعيش مـــع هؤلاء الرعاع من جديد ..... ولكن كيف سأعود للمنزل ... لقد تأخر الوقت و لم يعد هناك ما يقلني ..... إذن لا بد من العودة ماشياً رغم تعبي الشديد.

وصل إلى باب منزله وقد أنهكه طول الطريق ..... تحسس جيوبه ليخرج المفاتيح...

- اللعنة ..... لا أجدها .... لقد نسيتها في المكتب ..... كلّ هذا بسببها ... لقد ظلّت تستجدي وتكثر الكلام حتى أنستني مفاتيحي..... سأطردها غداً من كل بدّ... ولكن ماذا أفعل الآن ؟ و أين أذهب !!! ..... إنها الواحدة صباحاً ... إلى من أذهب .... لا أحد يراني !!

جلس على الأرض و قد ارتسم على وجهه تعب ممزوج بالقلق .....و شعر بغُصّة في حلقه .....

- لست أدري أأضحك أم ابكي على حالي هذا !! الجوع يمزّق أحشائي ..... أشعر بالتعب الشديد .... أريد شيئاً آكله .... أريد ...

هوى على الأرض نائماً من فرط تعبه و لم يدر إلا وعلامات اليوم الجديد قد ملأت الأجواء، وكذلك أصوات المارّة من الجيران من فوقه فنهض مسرعاً ....

- صباح الخير يا جار ..... كيف حالك ؟ ....أنا جاركم.....

تابع الجيران مسيرهم و لم يلتفت إليه أحد ...

- اللعنة .... ما زلت على حالي ..... و مازال الجوع يعتصر أمعائي.....

خرج مسرعاً باتجاه مكتبه و لم يتوقف حتى وصل إليه ووجد الباب مفتوحاً فقد كان الساعي قد حضر مبكراً ليقوم بعمله الاعتيادي ..... دخل إلى مكتبه و نادى الساعي ..... فلم يجبه .... اقترب منه وصاح فيه ..... دون جدوى !!

- اللعنة .... لماذا أضيع وقتي سأدخل إلى غرفتي ففي ثلاجتي بعض الطعام .....

دخل و اقترب من الثلاجة الصغيرة الموضوعة في زاوية الغرفة ... أراد أن يمسك بقبضة باب الثلاجة فلم يستطع !!! و كأنّ حاجزاً ما منعه من ذلك ....

- اللعنة... لا أستطيع إمساك قبضة الباب ..... لا ..... ليس إلى هذا الحدّ !!

وجد المفاتيح على الطاولة ..... حاول إمساكها فلم يستطع !!

- " هائجاً ... " اللعنة ...!! ما هذا الذي يجري معي !! لا أستطيع إمساك أي شيء أو تحريك أي شيء !!!

أعاد المحاولة مرات و مرات و استبد به الغضب .... ثم أصابته قشعريرة وأحس بـــالبرودة من حوله ..... ملأ العرق وجهه ..... لم يعد قادراً على السيطرة على نفسه .....

- ..... إنني .... خائف ..... لست أدري كيف أصف حالي !!! إلى متى سأســـتمر هكذا !!!

سقط على ركبتيه .... مسح عرقه الذي ملأ وجهه .... حاول أن يمنع دمعاً بدأ يتســـلل من عينيه ... تماسك لكنه انهار وبدأ بالبكاء .....

- " بصوت مختنق" ماذا فعلت ..... لماذا يجري هذا معي !!!! أكاد أشـــعر باليـــأس ..... لا أحد يسمعني !!! لا أحد يراني إنها مصيبة .....
- " **ويشف صدور قوم مؤمنين** " صدق الله العظيم .....

انتفض من مكانه خائفاً مذعوراً و قد قطع بكاءه هذا الصوت فالتفت إليه ....

- يا للهول ..... !!! إنك ..... إنك ..... المتسوّل ..... ولكن ..... كيـــف .... أنت تسمعني و تراني !!! ماذا يجري ؟ هل هي خدعة أم .... وماذا تفعل أنت هنا ؟ أتسخرون مني ؟ سأنتقم منكم جميعاً أيها الرعاع الأنذال ....

صرخ بأعلى صوته على الساعي الذي كان قد دخل إلى الغرفة ليوضّبها ..... توقّـــع أن تكون هذه مزحة سمجة أو مقلباً سخيفاً ..... ولكن عبثاً.

قام إلى الساعي و انقضّ عليه ليمسكه فلم يفلح ..... عاد و جلس على ركبتيه ثم نظر إلى العجوز ....

- كيف تراني و لا يراني أو يراك ؟؟ ماذا يجري !!! لماذا أنت في مكتبي ؟ .....

تعب من كثرة الأسئلة وسالت الدموع من عينيه ثانية .....

- تريد إجابة ؟

قام إليه و حاول إمساكه فلم يستطع ....

- " بشراسة " نعم ..... نعم أريدها ولو منك أنت أيها المأفون ..... المهم الإجابة ، أريد أن أفهم .....
- لم تتغير ..... مازلت متعجرفاً و لم تتعلم الدرس بعد ...
- " بدهشة " متعجرف !! درس !!!! أي درس أيها المأفون !!! ثم ..... ثم لماذا لا استطيع إمساكك طالما أنني أراك !!! ولماذا أحدّثك دون غيرك !!! .... لماذا أنت بالذات !! .....أريد إجابة ...
- هل تذكر يوم لطمتني أمس ؟ .....
- ..... نعم ....
- وقتها تابعت طريقي وأنا أدعو الله ألا أبقى على وجه هذه الأرض بعد هذه الإهانة .....
- ..... ما زلت لا أفهم !! هات من الآخر .....
- لم تحترم كبر سني ..... عندما سقطت ثانية دعوت الله تعالى أن يلقنك درساً لا تنساه ما حييت ... و استجاب الله تعالى دعائي و أثلج صدري ...
- جعلتني خفيّاً !!!
- يومها توفاني الله تعالى و أراحني منك ومن أمثالك ....
- " بذهول " ..... أنت ..... أنت ميّت .... و أنا أتحدث مع الأموات ... يا للهول .... ماذا يجري ... حيّ يتحدث مع الأموات !!

- و من قال أنك حيّ ؟
- " مذهولاً .. غاضباً " ..... و هل أنا ميت !!! أنت كذّاب ...

انفجر ضاحكاً رغم البؤس الذي كان يملأ وجهه .....

- أنا حقاً أهلوس ..... لا أدري إن كنت قد تناولت شيئاً أوصلني لهذا الحال البشـــع، أو تعاطيت الحشيش أو المخدرات ..... " بغضب " أخبرني ماذا يجري .....
- أنا ميت فعلاً .... لقد دُفنتُ أمس في مدفن الشيخ شهاب الدين وقـــبري بجانـــب النخلة ... لك أن تذهب و تتأكد إن أحببت .... أما أنت فحيّ ميت ....
- " صارخاً " هل عدنا للفلسفة من جديد ..... أتستخفّ بي .... !!!
- هل تفكرت في نفسك يوماً ؟ أنت لا ترى إلا نفسك .... لم تعر انتباهك للآخرين .... لم تكن منهم .... كنت متعالياً ... مغروراً تصف الناس بالرعـــاع وكأنـــك خُلقت من طين غير طينهم ....لم تحسّ بآلامهم و أنت المؤتمن من الله تعـــالى علـــى إسعادهم و تلبية حاجاتهم .....
- " ساخراً " مؤتمن !!!!! الطين ...!!!
- ائتمنك الله تعالى على ماله لتكون عوناً للآخرين ... فكنت تمنُّ به عليهم و تشعرهم أنهم متسولون و أنك السيد الكريم المعطاء .... اهمتني بإساءة منظر الشارع بينمـــا أنت و أمثالك لا تؤدون زكاة أموالكم حق الأداء ، ولو أنكم أديتموها حق الأداء لما بقي فقير أو محتاج على وجه الأرض ... أتذكر ما قلته لك يومها ؟
- " ضاحكاً " ... ما شأن هذه المحاضرة القيّمة عن الزكاة بالمصيبة التي أنا فيها!!
- هذا عقاب الله لك ..... فالناس التي تتعالى على العيش بينها لا تراك ... أنت محبوس عنها في عالمك الأناني الصغير العاجز ..... ألم تفهم بعد !! إنه سجنك في ذاتك .... لا تريد أن تعاشر الناس والناس لا يريدونك بينهم .... تمنيتَ لي السجن فسجنك الله و أثلج صدري .....
- " بعد صمت يسير " سجني في ذاتي ..... يبدو أنني أصبتُ بأعلى حـــالات الجنـــون بسببك ... و أنا الآن في مرحلة الهذيان .
- أنت لا تهذي ..... لقد عاينت حالك بنفسك ....

- اللعنة .... لماذا تذكّرني !!!! إنك تزيد من ألمي .... نعم إنه سجن .... بل هو أشدّ من السجن ..... اسمعني أيها الـــخرف ..... أريد حلاً لمشكلتي ..... افعل شيئاً و إلا .....
- " ضاحكاً " و إلا ماذا ..... أنسيت أنني ميت ....
- " غاضباً " تدعو عليّ و تموت لتتركني في هذا السجن .... افعل شيئاً .... لن أدعك ترحل من هنا حتى أعود إلى ما كنتُ عليه .....
- " ضاحكاً " إلى ما كُنتَ عليه !!!! حسبنا الله و نعم الوكيل ..... هـــل تـــذكر حديث النفر الذين حُبسوا في الغار ، وكيف استطاعوا الخروج منه ؟
- " بصخب " وهل هذا وقت الأحاديث ..... آمرك أن تخرجني من هذا السجن ....
- عبثاً ..... لا فائدة ..... وداعاً ....

غضب و نهض محاولاً الانقضاض على العجوز فوقع أرضاً ..... استجمع قـــواه و عـــاد فرفع رأسه لينظر أمامه فلم يجده .....تملّكه خوف مشوب بالذهول ..... لم يعد يعرف أيصدق ما جرى معه أم لا !! تبلدت كل أحاسيسه ..... صمت قليلاً ..... انطلقت الدموع من عينيه من جديد فانفجر بالبكاء كالأطفال ...

- و ماذا أفعل ..... ماذا أفعل ..... أي مأزق أنا فيه .....

عاد الساعي و دخل ليرد على الهاتف الذي بدأ بالرنين ....

- " باكياً "..... إنّا لله و إنّا إليه راجعون .... كلاهما !!! ... كان الله في عونك على هذا المصاب.

كان المتصل هو زوج السكرتيرة سعاد و قد أخبر الساعي أنها توفيت مساء اليوم الماضـــي حزناً وقهراً على ابنتها التي ماتت بين يديها بسبب تأخرها في استكمال العلاج .....

- " حزيناً " أنا أيضاً ألوم هذا الحيوان على استخفافه بألمها وألم ابنتها ... لقد كنت أسمع ولا حيلة لي بفعل أي شيء ... أراحنا الله منه و من أمثاله ..... سأكون هناك فوراً إن شاء الله ....
- " بغضب " حيوان أيها النذل ..... ليتني أستطيع تمزيقك بيدي هاتين ... أنت مطرود أيها الحثالة ..... ولكن ..... عليّ أن أجد هذا المأفون الذي تسبب لي بهذه المصيبة .... أنا حيّ ..... حيّ رغم أنفه و أنف الجميع .... ويجب أن تزول هذه اللعنة عنّي .... أنا حيّ ..... أنا حيّ ..... أنا حيّ .... أنا حيّ.....

.....

أفاق من ذكرياته الأليمة على صوت تشييع جنازة كانت تقترب منه شيئاً فشيئاً..... حاول جاهداً الوقوف على قدميه الكليلتين ليتأمل ما يجري ..... رأى وجهاً يعرفه تماماً .... إنه الساعي و زوج السكرتيرة وجمع من الأقارب و الأصدقاء يشيعون جنازة سعاد وابنتها الصغيرة .... إلى قبرهما المفتوح بجوار قبر العجوز ...

- " ساخراً " يا لها من صدفة مضحكة ..... لقد اجتمع الشمل .....

بالرغم من تعبه المضني فقد ظلّ مستنداً على قدميه المتعبتين يتفرّج .... لكن الانهاك والجوع و الخوف و الألم قد أخذوا منه كل مأخذ ..... بدأ يحسّ بالدوار و عدم التوازن .....ثم راح الخدر يجتاح كامل جسده فلم يعد يشعر به و لم يعد قادراً على التحكم بأي شيء ..... اختلّ توازنه و خارت قواه فهوى وسقط في حفرة القبر المفتوح وبدأ بالصراخ كالمجنون من فرط خوفه ....

- يا أنذال .....أخرجوني من هنا ..... اللعنة عليكم ..... أنا حيّ .... هل تسمعونني ... أنا حيّ..... أخرجوني .... اللعنة ..... لا أستطيع الحراك .....

لم يسمع أحدٌ صراخه ... و لم يستطع الهروب ....

وُسدت ضحيتاه التراب فارتسم الرعب على وجهه الذي بدأ يتشنج .... بدأ التربي بوضع الأحجار التي يسد بها فتحة القبر .... و قبل أن يتم إغلاق الفتحة بلحظات .... ومن بين جموع المشيّعين الذين يقفون على قمة الحفرة شاهد ثلاثة وجوه عرفها جيداً تنظر إليه .... سعاد وابنتها والعجوز .... ثم أغلقت الفتحة وسط ذهوله وصياحه المكتوم .... وتـــلاوة سورة " يس " من المشيعين ....

محمد جمال الدين السباعي

حلب

2005/2/10